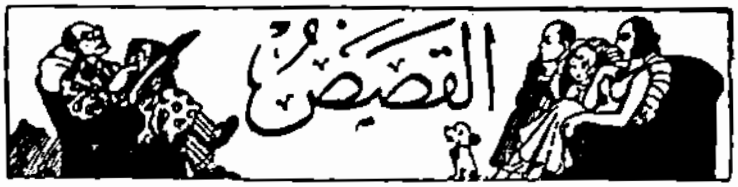

من الأدب الإيطالي

عـــدو ...

كان جالساً في حجرة الطالعة إلى نضد بجوار النافذة شارد اللب، مشتت الخاطر، يحدق في الفضاء الترابي أمامه لا يثبت شيئا ولا يحققه، وقد اضطربت في رأسه خواطر .. خواطر سوداء يريد أن يطردها بما ينفثه من دخان سجائره. كان كذلك حين نادته زوجته من خلف الباب: « بيترو! بيترو؛ أأستطيع الدخول؟» ثم .. ثم دفعت الباب في رفق وهي تقول: « أرجو أن تعيرني سمعك قليلا. سأقص عليك خبرا هاما» وتقدمت في هدوء وهي تلوح بمنديلها تطرد به سحب الدخان المتكاثفة هنا وهناك: لقد أفرطت في التدخين يا بيترو، وهو يهد من كيانك. لماذا تجلس صامتاً في الظلام؟ وكان ثوبها الحريري الجميل يحف حفيفاً خفيفا، وقرطها الماسي يشع نورا؛ وكانت هي تبدو أنيقة جذابة لأن هذا اليوم هو يوم الاستقبال ...

وزفر الزوج زفرة عميقة ثم نظر إلى زوجته وهو يبسم في تهكم ويقول: « لماذا رتبت شعرك بمثل ما أرى وقد جاوزت سن الفتاة؟» فاضطربت شفتاها وقالت: « إن شعري لا يلبث أن يتشعث، ولكن لابد للمرء أن يبدو أنيقاً حين ينتظر قدوم الزائر»، وفي لهجة السخرية قال: « حقا. إن هذا اليوم عظيم. إن النواقيس لا تنفك ترن رنينها العذب ... »

واقتربت الزوجة رويداً رويداً من زوجها وقالت وهي تبسم في رقة وقد طرحت وراءها كل تهكمه: « أتعرف سالفيتي القانوني الشاب؟ إن أمه كانت هنا اليوم؛ أفهمت ما أعني؟ »

فقاطعها الزوج في جفاء وقال: « لا، أنا لا أعرفه »

« إنك تذكره تماما! القانوني الشاب! إنه يبدو أنيقا رقيقاً! »

« أنا لا أذكره »

وفي الحق لقد كان بيترو يعرف الشاب، ولكن أي قوة على الأرض تستطيع أن تنتزع من بين شفتي هذا العنيد اعترافا؟ فقالت الزوجة في رقة: « لا بأس فأنا موقنة بأنك ستذكره حين تراه. لقد أسهبت أمه في وصف ابنتنا إيلينا بصفات الجمال والكمال والرقة والأنوثة و... ثم راحت تطلبها زوجا لابنها الشاب في رجاء واستعطاف فوافقت، وسيزورك زوجها بعد.. »

« وافقت؟ أحقا ما تقولين؟ »

وصاحت المرأة: « بيترو، أي زواج خير من هذا الزواج؟ وإيلينا تهوى الفتى! »

وانتفض الرجل كمن مسه طائف من الشيطان يرعد ويزأر هائجاً مضطربا « وكيف؟ كيف استطاعت الفتاة أن تغرم بهذا الشاب؟ أين تلاقيا؟ أريد أن أعرف ... وأنت ... أنت التي لا تعرفين معنى الأمومة، كيف تركت لها العنان لتندفع في طريقها طائشة؟ هيه! نعم! لقد سمحت لابنتك أن تحب رجلا لا أعرفه. لعلهما تراسلا أيضا! ولعلك كنت واسطة بينهما! لقد تمت القصة وعلى عيني ستار كثيف أسود! »

واضطربت المرأة، وخارت قوتها، وطار عنها ثباتها، فغطت وجهها بيديها تخفي بعض خجلها، وتستر ضعفها النسوي المنسكب من عينيها، ثم راحت تنتزع الكلمات من بين شفتيها انتزاعا:

« لا لا يا بيترو، لقد ظننت أني أحمل إليك بشرى، لماذا أنت كذلك؟ لماذا؟ ماذا اقترفنا، وأي غرابة في ذلك؟ شابان راق كل منهما في نظر صاحبه فتعلق أحدهما الآخر وأحبه، وبادله الآخر حبا بحب وغراما بغرام؛ أليس هذا ما كان بيننا يا بيترو؟ أنت ظالم »

وكان الرجل ظالما، وبدأ في جلسته مهموما مضطربا، وقد تدلى رأسه كأن فيه ثقل جبل، وكانت أفكاره تضطرم اضطراما، وأحس كأنما يعاني ألماً ممضا، وحين كبح جماح غضبه ارتد هذا في جسمه فتوراً واستخذاء، واستيقظ ضميره يخزه وخزات شديدة تؤلمه، كما آلمته أعصابه المضطربة من قبل. نعم لقد أحب سليليا وهام بها، فسعى إليها وقد اختارها لنفسه، ثم ... ثم فاز بهما بعد طويل عناء. أنها قصة غرام قديم ... قديم منذ نيف وعشرين سنة؛ ولكن الحقيقة لا تهزم، وعلى رغم أن العقد الثالث من عمر سليليا قد انفرط منذ زمان إلا أنها لا تزال جذابة جميلة. أما هو ... وهو يحبو للخمسين يبدو للعين كمن جاوز السبعين، أما قلبه فما برح شابا يؤمن بالحب، ويحبوه بما في رأسه وبدمعما،

لذلك . . . لذلك كان الرجل ظالما

وحين تراءى له فى خياله كل ذلك تقارظته الهموم فصاح : « سليليا ، أعصابى ! ... دعى هذا الأمر الآن ... »

وكفكفت المرأة عبرات الخيبة فى صمت ، ثم انطلقت إلى ابنتها حزينة كئيبة تحدثها الحديث كله ، وتقف فى طريقها إلى أبيها الثائر خشية أن يقع فى أمر . وساد صمت رهيب حين علم الجميع أن أعصاب الأب تضطرب، فأمسك فرنسكو عن العزف على البيان ، وتركت لوشيانا لعبتها ، وصمت بيبينو الصغير عن استذكار دروسه ، حتى الخادم المسكينة ، خففت من وطئها وهى تعد المائدة لئلا تزعج سيدها ...

وعلى المائدة جلس الجميع فى سكون ، وبدت إيلينا قلقة جزعة وقد سيطر عليها اليأس ، واضطربت الشوكة فى يدها فسقطت ، فى سذاجة الطفل التقطها بيبينو وهو يبسم ، ثم انفجر ضاحكا ، وضحكت لوشيانا ، ثم فرنسسكو ، حتى الأم الحزينة افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة . وغاظ الزوج ما رأى ، فأراد أن يخمد هذه الزوبعة فى خشونة وغلظة ، فنظر إلى زوجته ومن عينيه يتطاير شواظ يتقد وقال : « أعدى ملابسى ، سأسافر غدا إلى قريتنا .. قريتنا فالكونيتو » ، وذعرت الزوجة وتردد نظرها حائرا بين الزوج المحنق وبين الفتاة وهى تتلقى الصفعة القوية.. وأدرك الجميع ما أراد الأب ، فأطرقوا فى حزن إلا بيبينو الصغير ، فقد لمعت عيناه بالفرح . . . فرح التلميذ الصغير ينتظر الإجازة . . . فأشار إليه الأب : « أمسرور أنت لأننى ذاهب ؟ » فارتعد الطفل وقال « لا . لا يا أبى ، حقا لا ! »

وانطلق الأب والزوجة تقول له فى صوت ضعيف : « أتعود قريباً ؟ لا بد أن تفكر فى هذا الأمر » فقال : « أى أمر ؟ » قالت : « زواج إيلينا ! إن ذهابك معناه الرفض والتحدى معاً . إن سعادة ابنتك فوق كل عمل فى فالكونيتو » ولكنه كان فى ثورته يبدو عنيدا فقال : « لا جرم أن المرأة حين تفكر فى الحب تراه فوق كل عمل وإن كان عظيما ! »

لم يكن العمل هو الذى دفع الزوج إلى القرية ولم تكن الرغبة ، وإنما كانت النفس الشريرة التى فيه هى التى أرادته على أن يسئ إلى أهله

وصاحت الزوجة : « بيترو ، لا تذهب ... » غير أن الرجل اندفع لا يلوى على شئ . حتى إذا كان لدى الباب التفت إلى ورائه فرأى ... رأى أبناءه فى إطراق حزين ، وصمت مؤلم ، وما هم أحد ليودعه ، فقال له ضميره : « أرأيت . . أرأيت أسرتك المحبوبة كيف تتركهم عبيداً أذلاء ؟ »

وعند انبثاق الفجر كان الزوج فى طريقه إلى القرية

* * *

جلس بيترو وحيداً إزاء المدفأة فى بيت قديم له بالقرية ، وخياله عند الجماعة الذين خلفهم هناك فى المدينة ؛ وبدت نفسه رفيقاً له يحدثه : « كأنى أسمع الزوجة تقول لابنتها : أمغتبطة أنت يا إيلينا ؟ فتنطوى الابنة على هم ، ونفسها تضطرم أسى ولوعة . وكأنى بالأولاد من حولها يمرحون ويقولون : ما أجمل المكان حين يرتفع عنه هو ... هذا الكابوس هذا الكابوس هو أنت ... أنت الذى لا يحبك أحد ، ولا يسر لرآك طفل ... أنت الشبح المخيف ... إنهم يكرهونك ويمقتونك ... عجيب هذا ؟ كيف مرت الأيام وأنت تورث الفكرة فى أذهانهم عن جهل منك وغفلة ؟

لقد كان وحيداً ، ولكنه كان هادئاً يستطيع أن يشعر نفسه الأخطاء التى ارتكبها ؛ ويستطيع أن يرى بعينى عقله ثمار القسوة والغلظة وهى مرة كريهة . واستيقظ ضميره مرة أخرى يؤنبه بكلمات لاذعة قاسية ، وحكم هو على نفسه حين نشر على عينيه تاريخ أعوام مضت . لقد كان إلى عهد قريب هادئ الطبع حلو الشمائل ، رقيق العاطفة ، طيب القلب ؛ وحين أحس مصباح الحياة ينطفئ أمام عينيه لمس هو الظلام فى كل شئ ، وراحت أعصابه تضطرب فما يقوى على ضبطها . ماذا جنت زوجته وهى رقيقة عذبة الحديث عطوفة رحيمة طيعة ؟ وماذا جنى هؤلاء الأطفال الأبرياء ليرى هو الهفوة الهينة منهم كبيرة لا يكفر عنها إلا العقاب الشديد ؟ ثم ماذا فى هذه الأعصاب الفانية المضطربة ؟ لقد كانت رسول الشؤم والظلام فى هذه الدار وأهلها آمنون »

هذه هى النهاية ... !

وطلعت أيام الشباب فى خياله تذكره قصة الماضى . . فرأى أسرته جميعاً تنهد فرقا من ذكر أعصاب الأب المضطربة ، تلك

الأعصاب الظالمة التي وقفت سدا منيعا في سبيل زواج كبرى بنائه ، والتي أرغمت الصغرى على أن تتخذ خماراً وقد سيطر عليه الشك ؛ ثم هي أخرجت أكثر أبنائه من الدار لا يملك سلدياً يسد به الرمق ، وبيترو .. بيترو نفسه قاسى ويلات ما منته به هذه الأعصاب الظالمة . لقد كانوا يكرهون الأب ويمقتونه ، لما يرون فيه من الظلم والأنانية ، وكان بيترو نفسه يقول : « آه ، لو أن لي ولدا فقسوت عليه بمثل هذا لخنقت نفسي بيدي هاتين .. » أما الآن ... أما الآن فقد تراءى له ما يضطرب في خواطر أبنائه هو جميعا ، وأحس بما يضمرون له من المقت والكراهية

ليته يستطيع أن يطرح عن نفسه ذلك كله ليرجع إليهم وادعا هادئا رقيقا ... وشغلته الفكرة وتصرمت أيام

ووافته الزوجة وهي تقول : « ما كنت لأجرؤ على المجيء ولكن . . . أنت مريض . . . أنت مريض حقا » ثم راحت تبكي في صمت

وكان هذا الصراع النفساني قد أنهك الرجل فهو ذابل ذاو شاحب اللون ، مضطرب لا يكاد يستقر ، غير أنه قال في لطف « علام تبكين ؟ هل الأسرة بخير ؟ » قالت : « أنت . أنت . . يجب أن تعود إلينا » قال : « نعم يجب أن أعود .. أعود إكراما لإيلينا ، يجب . . ولكنني أجد الراحة واللذة هنا ، وعندي هنا ما يشغلني ... يجب . . . لأن إيلينا سأكتب إليها »

وكتب :

ابنتي العزيزة ؛ أنا أوافق على زواجك من السنيور سالفيتي ، لك تمنياتي الطيبة وحبي الطاهر

« أبوك »

وناول الزوجة الورقة وهو يقول : « أفي هذا ما يكفي ؟ »

قالت : « كفى .. ولكن بيترو ، ماذا وراء الباقي ؟ الجهاز . الناس . الزفاف .. لا يمكن أن ترفض ! »

وتناهى الرجل عن حديثها حينا ثم نظر إليها وهو يقول : «إن القطار يتحرك في الثالثة تماما»

« وأنت ... ؟ »

« سأرافقك إلى المحطة »

وانطلقا جنبا إلى جنب وذراعا في ذراع والزوجة تقول : « تعال معي يابيترو ، تعال إلى دارنا تعال ! لا تبذر فينا غراس الشقاء بفراقك ! »

فقال الرجل في هدوء : «سأظل هنا مابقي لي من العمر لأنكم تشقون بي ، سأعيش هنا »

— « وحيدا ! »

«نعم ، هنا ، إنني أريدكم هانئين سعداء»

— «وكيف .. كيف تكون سعداء وأنت هنا ونحن هناك يتامى وأرملة ؟ »

ثم راحت تندب حظها الأسود العاثر

قال الرجل « إن كل من في الحياة يحمل قسطه من المتاعب والأحزان ، وفي كل دار عدوها ؛ فالفاقة والرذيلة والسقوط كل أولئك أعداء ؛ أما دارنا ففيها عدو من نوع آخر هو .. هوأنا ، هذا ماأعرفه وأوقن به ، وليس لي من العزم ماأستطيع أن أخرج عن طبعي هذا . . . عن قسوتي وغلظتي ، ولا أريد أن أبذر في أبنائي غراس العداوة والبغضاء لي ، لهذا ... لهذا فأنا لا أستطيع أن أرجع إلى داري ... لن أرجع ... لن أرجع حتى أبرأ »

وبدا لعيني المرأة مراد زوجها ، ووضح لها ما يريد ؛ فقالت في عطف وشفقة : « سأبعث إليك بفرنسكو أو سالفيتي فهو فصيح اللسان قوي الحجة »

وراحت تودعه في حرارة وشوق وقد أشرق في نفسها تاريخ السعادة الأولى حين شبا حبيبين ، وهي تقول : « وسأرسل فرنسكو يابيترو ، فهو رحيم ، وهو يحبك ؛ يحبك على رغم كل شيء لأنك أبوه » ثم سعدت إلى القطار

ورجع الزوج يتثاقل كأنما يحمل على ظهره حملا ثقيلا ، وتراءى له ابنه الأكبر في الخيال يستعطفه ويرجوه ويجثو عند قدميه يبكي ويبكي ... فيضني هو ، فيلين ، فيلبي ... ثم يرجع ويرجع معه العدو الذي فيه ، فتضطرب الدار ويفزع الأبناء . أين الخلاص ؟ وبدا له الخلاص وهو يسير على حافة هوة عميقة ، في خطوة ... خطوة واحدة يتقدمها في ثبات وعزم ، فأغمض عينيه وسار ...

* * *

وخرج فرنسكو ليعود بأبيه فما عاد إلا بقصاصة ورق تحمل إليه النبأ المفزع ... موت أبيه

ك . ع

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة

للمجلد الأول من كتاب

وحي الرسالة

نصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل ، وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفا

وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

مطبعة الرسالة